ويتدخل قاضي القضاة مرة أخرى فيتحايل ويحبر المؤذن على الصعود إلى المئذنة في منتصف الليل والنحوم متلألئة في كبد السماء، كي تعجل الغانية بعتق السلطان الذي لايليق به أن ينام في بيت امرأة عير شريفة.

ويعضب السلطان، ويرى فيما فعله القاضي عبثاً وتلاعباً واحتيالاً يتنافى مع القانون والشرع والأخلاق، فيمنع الغانية من التوقيع على صحيفة العتق بهذه الطريقة المزرية التي لاتخدم القانون الذي أصبح يريد أن يحضع له حتى النهاية، فيصيح قائلاً:

«يا للعار.. كفى.. كفى!.. أبطلوا هذا العبث.. كفوا عن هذا الصغار.. إني أرفض رفضاً باتاً أن نوقع بهذه الطريقة.. وأنت يا قاضي القضاة ألا تخجل من اللعب هكذا بالقانون؟..»[20]

وهنا تبرر لنا الغانية التي ينظر إليها الآخرون نظرة الريبة والاحتقار عملاقة إذا قيست بقامة القاضي الدي أصبح قزماً بانتهاكه حرمة القانون على هذه الصورة المضحكة، وذلك عندما تقبل أن تصحي بمالها وأن تتنازل عن السلطان بمحص حريتها، وهي التي كان بإمكانها أن تحتفظ به مادامت قد اشترته أمام الملأ، ومادام القانون نفسه يسوغ موقفها لو شاءت أن تملكه. وبهذا اسحقت العانية تقدير الحكيم وتقدير السلطان.

«السلطان : فلتتقدم بالثناء على كرم هذه السيدة النبيلة.
اسمحي لي يا سيدتي أن أوجه إليك شكري، وأنا أرجو منك أن تقبلي رد مالك إليك؛ إذ لم يعد هنالك من سبب يدعو إلى خسارة مالك.. أيها الوزير: فليدفع إليها من مالي الخاص ما يعادل المبلغ الذي خسرته.

الغانية : لا.. لا يا مولاي السلطان. لاتسترد مني هذا الشرف.. ما من ثروة في الأرض تعدل عندي هذه الذكرى الجميلة التي سأعيش عليها طول حياتي. إني بشيء زهيد أسهمت في حدث من أعظم الأحداث»[21].